٦- سيدنا يوسف عليه السلام

صاحب أحسن القصص

لم يكن الحديث السابق عن ابتلاء يعقوب عليه السلام ليتم بدون الإشارة إلى ما وقع ليوسف عليه السلام .. إذ إن هذا النبى الكريم كان - أو لا يزال - جزءًا أصيلاً من أجزاء قصة ابتلاء أبيه يعقوب عليه السلام ، وفوق كل ذلك فقد بصرتنا قصة يوسف عليه السلام المعروفة بأحسن القصص ، بابتلاء ذلك النبى الكريم فى نفسه ، بخلاف ابتلاء أبيه يعقوب عليه السلام .

من هنا رأينا من الضرورى أن نفرد ليوسف عليه السلام ولحالات ابتلائه التى انحسرت فقط فى نفسه من دون أزواجه أو أولاده الصفحات تلو الصفحات ، لأجل أن تكتمل لدينا حالات ابتلاء الأنبياء ورسل الله المصطفين..

ولنا فى هؤلاء أسوة حسنة.. لكى نقتدى بهم ، ونعيش معهم وفى ظل ما عانوه من مشاكل ومصاعب وابتلاءات وهم من عباد الله المصطفين الأخيار.

ولقد تجلت صور ابتلاءات يوسف عليه السلام فى نفسه فى ثلاث صور.. الأولى ابتلاؤه بالابتعاد عن أبيه الذي أحبه وكذلك إخوته !. والصورة الثانية ابتلاؤه بدخوله السجن ظلمًا ! ، أما الثالثة عندما زعم إخوته أنه سرق مثلما سرق أخوه بنيامين ! !.

ولنا أن نتصور نبيا كريمًا مثل يوسف عليه السلام ، وهو يعيش هذه الصور الثلاث من صور ابتلائه ، صابرًا قانتًا لله - عارفًا بحكمته متقبلاً قضاء الله وقدره فى رضًا وقناعه.

ولسوف يتبين لنا أن مصائب البشر وابتلاءهم بالشر تهون دائمًا أمام ابتلاء الأنبياء الذين اصطفاهم رب العالمين لأداء رسالته وتبليغ كلماته تعالى لبنى البشر. فأى اختيار وأى اختبار لهؤلاء الصفوة من الذين خلقهم اللَّه لعبادته وتبليغ رسالته للبشر أجمعين.

ومن قبل الاستغراق أكثر فى بيان صور هذه الابتلاءات كان من الضرورى أن نعيش ومضات مضيئة من قبس من سيرة هذا النبى الكريم يوسف عليه السلام.

ووفق الإجماع فإن يوسف عليه السلام هو ابن يعقوب عليه السلام من زوجه راحيل ابنة خاله لابان، آخر من ولد فى حاران من قبل أن يتركها فى طريق العودة إلى أرض كنعان[1].

وجاء اسم يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم بضم السين، وفى التوراة تنطق بكسر السين، وضم السين أجمل. حتى لا يختلط الأمر على الناس فيظنوا على حد قول الدكتور البدراوى أن الاسم مشتق من الأسف والمؤاسفة كما هو الحال لو نطقت بكسر السين[2].

وقال البعض: إن اسم يوسف مشتق من باساب العبرى بمعنى يُضيف ويكون يوسف. بمعنى يضيف أو ضيف اللَّه، وبعضهم قال: إنه مشتق من جذر عبرى بمعنى يخاف أو خائف، فمعنى يوسف هو خائف اللَّه. وقد أورد هذه الاشتقاقات قاموس الكتاب المقدس.

ويقول الدكتور محمد سيد طنطاوى: أن يوسف عليه السلام.. هو أحد أنبياء اللَّه الصالحين، وأبوه هو يعقوب، وهو كذلك من الأنبياء، وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى اللَّه عنهما - أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن الكريم ابن الكريم ابن

---

(١) قصص الأنبياء والتاريخ - د. رشدى البدراوى، جـ٣.

(٢) من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعده، جـ١.

الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فهو نبى وأبوه نبى وجده نبى ، وجد أبيه نبى - عليهم الصلاة والسلام ».

كما ورد اسم يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم سبعا وعشرين مرة.. ففى سورة الأنعام قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤].

كما ذكر يوسف عليه السلام مرة أخرى فى سورة غافر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [غافر : ٣٤].

أما المرات الخمس والعشرون الباقية فقد جاءت كلها فى سورة يوسف المعروفة بأحسن القصص ، وهى سورة مكية خالصة.. من السور القرآنية التى أنزلت على النبى محمد - عليه الصلاة والسلام - من قبل الهجرة ، وقد ورد فى سبب نزولها روايات متعددة منها : ما روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : أنزل القرآن على النبى ﷺ فتلاه على أصحابه زمانًا ، فقالوا يا رسول الله ، لو قصصت علينا ، فنزلت سورة يوسف وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية.

ويرجح الدكتور سيد طنطاوى - شيخ الأزهر - أن نزول هذه السورة على النبى - عليه الصلاة والسلام - إنما كان فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج والتى اشتد فيها الأذى الذي أنزله المشركون بالنبى بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه السيدة خديجة رضى الله عنها.

كما روى كذلك أن من أسباب نزول هذه الآية - كما ذكر ذلك أحمد بهجت - أن اليهود سألوا رسولنا الكريم أن يحكى لهم عن يوسف أحد أنبيائهم القدامى.. وكانت قصته - عليه السلام - قد تعرضت للزيادة والنقصان فى كتبهم ، فنزلت فى كتاب الله كاملة بتفصيلاتها الصغيرة الدقيقة.

واختلف العلماء فى تسمية هذه السورة بأحسن القصص. ومما قيل فى هذا الشأن أنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم ، وقيل : لأن يوسف تجاوز عن إخوته وصبر عليهم وعفا عنهم ، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والعفة والغواية ، وسير الملوك والممالك ، والرجال والنساء وحيل النساء ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه وتبصير الرؤيا وتفسيرها فهى لذلك سورة غنية بالمشاهد والانفعالات ، وقيل : إنها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعًا كان إلى السعادة.

الابتلاء بالاغتراب

وتتجلى أولى صور ابتلاء يوسف عليه السلام فى نفسه ، فى ابتعاده عن الأهل والأسرة وأبيه الذي أحبه حبا عظيمًا.. وذلك حين حُكم عليه وفق تدبير رب العالمين بأن يقاسى عذاب الاغتراب بعدما غدر به إخوته وألقوه فى غيابات الجب أو البئر العميق.

هذا الاغتراب بدأ مع الفكرة الشيطانية التى سيطرت على عقل هؤلاء الإخوة.. وقد تدخلت إرادة اللّه - عزوجل - لكى تغير من فكرتهم الأصلية بقتله - عليه السلام - أو بضربه حتى الموت !.

ويصور لنا القرآن الكريم تلك المفاضلة بين القتل أو إلقائه فى الجب ، وذلك عندما عقد إخوته العزم على ذلك.. فى قول اللّه تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۞ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف : ٧ - ١٠].

وهناك من المفسرين من أضافوا إلى تفسير هذه الآيات بعض أفكارهم الخاصة.. حيث أكدوا أن إخوة يوسف قد عذبوه وضربوه رغم إجماعهم على إلقائه فى الجب ! ، وأن أخاهم الصغير يوسف عليه السلام الذي كان يبلغ من العمر آنذاك سبعة أعوام.. قد أخذ يبكى مسترحمًا إياهم.. فتوقفوا عن ضربه.. عندما اقتربوا من الجب الذي ألقوه فيه !.

وكذلك بدأت الخطوة الثانية فى أمر اغتراب يوسف عليه السلام.. حين عثرت عليه إحدى القوافل السيارة.. وقد فرح كبيرهم - كما أكد ذلك القرآن الكريم - بنجاة الغلام ، وسارعوا ببيعه بدراهم قليلة.. فاشتراه أحد رجال الحكم فى مصر آنذاك وإن اختلفوا فى اسمه ومكانته ومنصبه.

ويصور لنا الكاتب الكبير أحمد بهجت هذه الخطوة فى ابتلاء يوسف عليه السلام فى عبارات بليغة وقوية.. فيقول : «لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف ؛ لأنه تحول حكمه فى ذلك إلى حكم الأشياء المفقودة التى يلتقطها أحد.. فيصير عبدًا لمن التقطه .. هكذا كان قانون ذلك الزمان البعيد ، لقد ألقى فى البئر ، أُهين، حرم من أبيه ، التقط من البئر ، صار عبدًا يباع فى الأسواق ، اشتراه رجل من مصر ، صار مملوكًا لهذا الرجل ، اكتملت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة.. هكذا يظن أى إنسان.. غير أن الحقيقة شىء يختلف عن الظن تمامًا ، ولكن كيف »؟ !.

ويضيف أحمد بهجت قولاً عما آل إليه مصير يوسف عليه السلام فى هذا الابتلاء الذي قدره رب العالمين على هذا النبى الكريم : « وما نتصوره نحن مأساة ومحنة وفتنة ، هو أول سلم يصعده يوسف فى طريقه إلى المجد ، ذلك لأن اللّه غالب على أمره ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين ، فها هو يوسف عليه السلام من خلال رعاية اللّه له.. يعيش فى محبة صاحبه الذي اشتراه وها هو ذلك السيد يقول لزوجه : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وليس هذا السيد رجلاً هينًا ، إنما هو رجل مهم ، رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر.. ».

ويؤكد رب العالمين فى كتابه العزيز أن ابتلاء يوسف فى نفسه بهذه الصورة التى ارتبطت بالاغتراب عن الأهل والأحباب ، إنما كان فى الوقت نفسه بداية أن مكن اللّه له فى الأرض ، وتلك هى المكافأة السماوية العظيمة التى نالها هذا النبى الكريم وكان لا حول له ولا قوة فيما فُعل به ، اللهم إلا أنه كان أحسن إخوته حلمًا وخلقًا وأدبًا ، وتلك جميعها هى شيم الأنبياء الذين أدبهم وعلمهم رب العالمين.

وفى ذلك يقول رب العالمين فى القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١].

الابتلاء بالسجن

أما الصورة الثانية من صور ابتلاء هذا النبى الكريم يوسف عليه السلام فقد تجلت فى دخوله السجن ظلمًا .. حيث لم يرتكب فى حياته جرمًا أو معصية يعاقب عليهما .. بل بالعكس ، فقد دخل السجن وفق ما سوف نعرفه بعد لحظات ؛ لأنه امتنع عن فعل يعاقب عليه رب العالمين ، وقد استمسك باللّه وبقوته الذي أعانه على النجاة بنفسه مما دبرته له سيدة منزله وزوجة ذلك الحاكم الذي اشتراه وهو صغير!.

لقد كانت امرأة العزيز ترقب ذلك الفتى اليافع والذى ازداد جمالاً وقوة وفتوة بعد مرور سنوات طفولته ، وكانت تجلس إليه وتتحدث معه ، فيزداد إعجابها به لحظة بعد لحظة ، حتى جاء اليوم الذي اكتشفت فيه هذه المرأة أنها عاشقة ، وبدأت تظهر حبها ليوسف عليه السلام ، وكانت من قبل تنظر إليه كطفل فأحبته كما تحب الأم أطفالها الصغار.

ولما انقضت الأعوام بيوسف حيث كبر وترعرع داخل منزل سيده حتى قيل :

إنه قد بلغ آنذاك مرحلة الثلاثين من عمره ، أخذت تنظر إليه نظرة جديدة ، هى كأنثى وهو كرجل ، وتسلل هذا الشعور الجديد إلى نفسها ، وازداد شيئًا فشيئًا حتى ملك عليها كل حواسها.

ولقد صور لنا القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣].

ولولا رعاية اللَّه وعنايته لهذا النبى الكريم لاستطاع الشيطان التغرير به ليقع فى الخطأ ، وقد بين لنا ذلك أيضًا القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤].

ويؤكد الشيخ محمد متولى الشعراوى أن العلماء قد اختلفوا فى تفسير هذه الآية ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف ، فقد ثبت بالدليل القاطع أن نبى اللَّه يوسف عليه السلام قد امتنع عن ارتكاب الفاحشة بعدما دعته إليها هذه الزوجة حيث صرف اللَّه عنه السوء والفحشاء ؛ لأنه من عباد اللَّه المخلصين.

ويؤكد الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى - شيخ الأزهر - أن المتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قابل دواعى الغواية الثلاثة .. التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة ، وتغليق الأبواب ، وقولها « هيت لك » ، بدواعى العفاف الثلاثة التى رد بها عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان سلاح يوسف عليه السلام فى تلك المعركة الابتلائية العنيفة بين نداء العقل ونداء الشهوة.

وكذلك تثبت هذه الآية أن يوسف عليه السلام من عباد اللَّه المخلصين ، وأن نجاته من سلطان الشيطان الرجيم سوف تتم بإذن اللَّه ورعايته.

وهكذا دائمًا يكون رب العزة مع عباده الذين يتقونه فى الغيب ولا يخشون فى عبادته لومة لائم.

ولم تتوقف قصة يوسف عند حد نجاته من ظلم هذه المرأة.. وبالتالى لم تتوقف إشراقات ابتلائه بهذا الأمر.. إذ تصادف أن اكتشف أمرها زوجها وأحد أقربائها عندما بعث اللَّه بهما فى الوقت المناسب لكى يكتشفا بوادر هذه الجريمة وقد شاهدا الفصل الأخير منها. بعدما نجح يوسف عليه السلام وبقوة من اللَّه أن يفلت من كيد هذه المرأة وكان بينه وبين باب الهروب لحظات ، وكان قميصه الممزق من الخلف دليلاً على براءته.

وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٢٦ - ٢٨].

وهذه عناية أخرى من عنايات اللَّه بهذا العبد الصالح. إذ أراد أن يثبت براءته فورًا وبدون مساءلة أو تأخير وفى تفسير الدكتور سيد طنطاوى لهذه الآية قال : إن هذا الشاهد قد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل ابن عمها ، وقيل إنه كان صبيا فى المهد ، كما وردت بذلك بعض الآثار ، فقد أخرج ابن جرير والبيهقى والإمام أحمد فى مسنده ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ أنه قال : تكلم فى المهد أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى ابن مريم.

كذلك يؤكد الشيخ طنطاوى أن اللَّه تعالى قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة من يدلى بشهادته ، لتثبت براءة يوسف أمام العزيز ، وألقى اللَّه تعالى هذه الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها.. وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه.

والشيء اللافت للأنظار في سياق هذا الموقف هو سلوك زوج هذه المرأة !.
حيث نجد هذا الرجل صاحب المنصب الكبير يعالج هذه الجريمة التي تفور لها الدماء في العروق وتستلزم حسمًا وحزمًا في الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد، شأن المترفين في كل زمان ومكان ، الذين تهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها. إذ لم يلُم زوجته أو يعنفها أو يعاقبها ، بل مسها بقوله مسًا خفيفًا ، يشبه المديح.

ثم طلب من نبي اللَّه يوسف عليه السلام كتمان الأمر، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة.

وتستمر الأمور بعد ذلك على ما هي عليه من بقاء يوسف معها في بيتها ، مع أنه كان من واجبه أن يبعد كل منهما عن الآخر اتقاء لتكرار هذه الجريمة ، لو كان غير يوسف عليه السلام في هذا الموضع ! ، واللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس من عباده لا يعلمون ذلك !.

والغريب أن براءة يوسف عليه السلام ظلت في نطاقها المحدود ، إذ لم تخرج عن جدران منزل عزيز مصر.. لولا ما أشيع في البلاد من أمر هذه الجريمة وموقف يوسف عليه السلام منها ! ، هذه الشائعات ، جعلت امرأة العزيز تحاول أن تثبت لسيدات مجتمعها أنها كانت على حق في ارتكاب هذه الجريمة مع نبي اللَّه يوسف !.

ويحكي لنا القرآن الكريم بقية تفاصيل هذه القصة في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۞ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ**

رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ۞ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۞ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٠- ٣٤].

وفى هذا الموقف الجديد استخدمت امرأة العزيز المكر .. لكى تنال ما تريده من نبى اللَّه يوسف ، ويؤكد الشيخ الشعراوى فى خواطره الإيمانية بخصوص هذه الآيات أن الحديث القرآنى قد اتسع ، فالمشهد حتى قبيل هذه الآيات كان رباعيا. إذ إن أبطاله هم امرأة العزيز ويوسف والشاهد والعزيز نفسه ، إلا أن الخبر انتقل إلى خارج القصر ، مع حرص العزيز أول الأمر على أن يبقيه سرًا بين جدران القصر.

وأمام هذا الجمع الغفير من ضيوف هذه المرأة التى تخلت عن حيائها وتحفظها تمامًا. أعلنت : لئن لم يفعل ما آمره به فسوف أسجنه وأجعله من الصاغرين ، وأمام هذا العناد من جانب امرأة العزيز لم يجد يوسف من سبيل للخلاص من هذا البلاء ، إلا بالاستغاثة باللَّه ، حتى ولو دخل السجن لأجل ذلك !.

وهنا نرى أن يوسف عليه السلام قد أراد استبدال ابتلاء بابتلاء آخر أخف وطأة ، حيث رأى أن الابتلاء بالمعصية هو أشر هذه الابتلاءات ، ولا سبيل من النجاة منه إلا بعون اللَّه وتحقيق دعوته بدخول السجن.

ولقد لاقت هذه الدعوة هوى فى نفس العزيز وأعوانه .. حيث أصدر أوامره بضرورة أن يسجن يوسف ، إما استجابة لرأى امرأة ، وإما اتقاء لشر الفتنة التى بدأت تنتشر فى البلاد بسبب يوسف وفحولته وما اتصف به من جمال ونقاء ، وقد تقبل يوسف عليه السلام هذا الحكم الجائر بصبر وقناعة بأن اللَّه لن يخزيه أبدًا. ولسوف يظهر براءته عاجلاً أو آجلاً.

بل وأكثر من ذلك فقد أراد رب العالمين أن يبين لنا أن دخول يوسف عليه السلام ، إنما كان منحة وتقديرًا ، وليس عقابًا.

وهو من جانبه قد استغل عليه السلام فرصة وجوده بالسجن بين أقوام أبرياء يشعرون بالظلم لكى يدعوهم إلى الله ، كما كان السجن فى الوقت نفسه فرصة لكى يعيش يوسف عليه السلام مع نفسه ومع الله ، الذي أمده بالخيرات تلو الخيرات حتى أوصله من داخل السجن إلى كرسى عرش مصر ، وذلك حين احتاج إلى خدماته الملك لكى يفسر له أحلامه ويستنير برأيه فى قضايا المستقبل. لذلك فقد أصدر ذلك الملك أوامره بإخراج يوسف عليه السلام من السجن وإعلان براءته.

بل وأكثر من ذلك ، فقد أصدر ملك مصر آنذاك أوامره بأن يتولى يوسف عليه السلام أمر تصريف الشئون الاقتصادية فى مصر طوال الأزمة التى تنبأ بها الملك فى ذلك الحلم المشهود الذي حكى لنا عنه القرآن الكريم فى آيات بينات. وقد نجح يوسف عليه السلام فى ذلك نجاحًا باهرًا تصديقًا لقول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٢٢] ، فياله من جزاء عظيم نال شرفه نبى كريم.. من رب العالمين الذي يعلم السر وأخفى ، وتلك موعظة عظيمة لابد لنا من الوقوف أمامها طويلاً ، وتدبر معانيها وأهدافها ؛ لكى تكون خير معين لنا فى الخروج من مثل هذه الأزمات وتلك الابتلاءات.

الابتلاء بالاتهام بالباطل

وما كاد يوسف عليه السلام يخرج من ابتلاء السجن ، وهو قاب قوسين أو أدنى من التخلص من الابتلاء الأول والذى عرضه للاغتراب وفراق الأهل.. حتى أصيب بالصورة الثالثة من صور ابتلاءاته - عليه السلام - ، وذلك عندما اجتمع بإخوته فى المرة قبل الأخيرة ، وهم مجتمعون أمامه لأجل أن يميرهم بالمعونة الاقتصادية فى

ظل ما عانوه وأبوهم من مشاكل نجمت عن تلك المجاعة اللعينة ، وكانوا حتى هذه اللحظة لا يعرفونه كما أكد ذلك لنا القرآن الكريم ،

ولقد أراد يوسف عليه السلام بحيلته التى سبق وألقينا عليها الأضواء المبهرة عندما قرر احتجاز أخيه الصغير بنيامين.. أن يجمع شمل أسرته وأبيه من جديد بعد فراق دام فى أغلب الأقوال أربعين عامًا.

وانظر كيف قابل هؤلاء الإخوة.. حيلة يوسف عليه السلام باتهامهم إياه بالباطل.. أمام كل أعوانه ، وكان آنذاك يجلس على عرش مصر. إذ وقع هذا الاتهام على رأسه وقوع الصاعقة. مما أكد لديه أن هؤلاء الإخوة لا يريدون له الحب ولا الخير.. وأن الحقد لا يزال يملأ قلوبهم نحوه.. رغم مرور هذه السنوات الطويلة.

ولقد ذهب بعض المفسرين مذاهب غير مقنعة حين تطرقوا للحديث عن حادث السرقة المبين بالقرآن الكريم ، والذى أشار إليه إخوة يوسف عندما اتهموه وأخاه الصغير بنيامين !.. والقرآن الكريم لحكمة لا يعلمها إلا اللّه.. لا يشير لنا من قريب أو بعيد عن أصل هذا الاتهام ومدى صدقه من عدمه ، ذلك لأن اللّه تعالى يعلم تمام العلم ، أن عباده الصالحين.. أبدًا لا يمكنهم تصديق ما رواه إخوة يوسف عن سرقته السابقة ، وهو يعيش بينهم فى مرحلة الطفولة ، فالأنبياء ، معصومون من الأخطاء.. وقد نجاه اللّه بفضله وبرحمته من مكر امرأة العزيز ، فكيف باللّه نصدق ما يقوله هؤلاء المفسرون ، عن سرقة يوسف لبعض الأشياء وهو لا يزال صغيرًا ! !.

وحتى ولو كانت هذه الأشياء صنمًا أو ما شابه ذلك !.

ولقد بين لنا القرآن الكريم هذا الاتهام الباطل ، وردود أفعال الإخوة وكذلك موقف يوسف عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ**

لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ٧٧].

وفى كتاب عرائس المجالس للثعلبى ، قال فى تفسيره لآية السرقة التى رددها إخوة يوسف فى شأن أخيهم الصغير وشأن يوسف عليه السلام : راح إخوة بنيامين يلومونه لوجود الصواع فى رحله وقالوا له : فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل.. لا يزال لنا منكم بلاء إذ أخذت هذا الصواع.. فقال بنيامين : بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء ، ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه. إن الذي وضع الصواع فى رحلى هو الذي وضع الدراهم فى رحالكم ، وواضح من هذا أن بنيامين لم يكن يعرف كيف جاء الصواع إلى رحله ، وتذكر أنهم لما عادوا بالميرة إلى أرض كنعان ووجد القصة معهم اعتقد أنهم سرقوها من العزيز بعدما أخذوا القمح.

ولعله ظن أنهم دسوا الصواع فى رحله ليكيدوا له فقد كانوا يكرهونه ، كما كانوا يكرهون أخاه يوسف من قبل ، ولعلهم من جانبهم ظنوا أن بنيامين قد سرق الصواع فعلاً لحقدهم عليه ، ولينفوا عن أنفسهم أى نقيصة فقد رأوا أن يثبتوا عليه السرقة بل وجعلوا السرقة طبعًا فى أبناء راحيل[1].

أما الشيخ الشعراوى فله رأى وجيه فى تفسير هذه الآية وإن كان لا يختلف كثيرًا عما قاله الثعلبى حيث ذكر الشعراوى فى خواطره المرتبطة بقصص الأنبياء : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن إخوة يوسف قالوا له. إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر ، لماذا؟ !. لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، لقد سرق أخوه الأكبر من قبلها وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه. وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذي يخاطبونه.

---

(١) عرائس المجالس للثعلبى ، مصدر سابق.

وحين يسمع يوسف هذا الكلام لابد وأن تخرج الملكات عن استقامتها.. لأن اتهام إنسان برىء بالسرقة ، لابد أن يحزنه ويؤلمه ، ولذلك لابد وأن يحدث انفعال مضاد.. هذا الانفعال إما أن يبقى داخل النفس فلا يخرج ، وإما أن يظهر فيحدث رد فعل عنيف ، وأن يوسف عليه السلام يستطيع أن يبرئ نفسه من تهمة السرقة، كأن يقول لهم : أنا لم أسرق وأخى لم يسرق ، وأنتم الذين يملأ الحقد قلوبكم علينا ، ولكنه لو فعل ذلك لكشف عن شخصيته وهو يريد أن يبقى مجهولاً لديهم.. فهو برىء من السرقة وأخوه برىء ولكنه لا يستطيع أن يتكلم ، واقرأ قوله تعالى : ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾(١).

وهكذا نرى أن هذا النبى الكريم قد تحمل فى نفسه وتحامل عليها لأجل أن تتم إرادة اللَّه وتنفذ مشيئته ، ولم يفكر مطلقًا فى رد هذا الاتهام عن نفسه وهو عزيز مصر وملكها !.

وقد جزاه اللَّه على هذا الموقف الصعب خير الجزاء.. إذ فرج عنه جميع ما ألم به من كربات واجهته منذ طفولته. بل وأذهب عنه كل ابتلاءاته فى لحظات حين قدم إليه والده يعقوب عليه السلام وجميع إخوته ، بعد فراق دام سنوات طويلة.

ولقد اختلف العلماء فى نوع هذه السرقة التى ارتبطت بيوسف عليه السلام وفق اتهام إخوته.. فقال سعيد بن جبير وقتادة : إنه سرق صنمًا لجده فكسره وألقاه فى الطريق ، وقال ابن جريج : إن أمه أمرته أن يسرق صنمًا لخاله. وواضح كما يشير الدكتور البدراوى أن هذه الأقوال تشير إلى الصنم الذي أخذته أمه راحيل من أبيها « لابان » عند مفارقة يعقوب له وتركه حاران.

ولكن نظرة إلى جدول حياة يعقوب تبين أن يوسف كان عمره وقتئذ سنة واحدة مما ينفى هذا الزعم.

---

(١) قصص الأنبياء. الشيخ الشعراوى ، جـ١٤ .

ومن الآراء الأخرى التى قيلت بشأن هذه السرقة قول مجاهد : جاء سائل يومًا فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاها السائل. وقال غيره : دجاجة.. وقال وهب : كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء ، وهذا ليس بسرقة ، وقال الضحاك وغيره : كان ليوسف عمة ، وكانت تحبه حبًا جمًا .. إذ كانت هى التى تولت تربيته هو وبنيامين من بعد رحيل أمهما راحيل ، فلما كبر وأراد يعقوب أخذه احتالت بأن دست فى ثيابه بعض متاعها ، قيل إنها منطقة أبيها إسحق ، وكانت هى أكبر من يعقوب فورثتها واتهمت يوسف بسرقتها ، ووجدوها عنده ، وحسب شريعتهم سلموا يوسف لها فبقى عندها حتى ماتت !!.

ويعلق الدكتور البدراوى على هذه الرواية بقوله : إنها مزيفة حيث لم يُعرف ليعقوب أختًا أكبر منه ! ، ونحن بدورنا نؤيد ما قاله الدكتور البدراوى من أن هذه الرواية لا أساس لها من الصحة ، وبالتالى نرى كيف تحمل هذا النبى الكريم هذه الافتراءات التى ابتُلى بها لا لشىء إلا لأنه من عباد اللَّه المصطفين الأخيار الذين وصفهم اللَّه تعالى فى حالات ابتلاء واختبار كبيرين وهو أعلم بما فى نفوسهم ونفوس غيرهم من عباده.

ولقد لاحظنا من خلال متابعة متأنية لسياق قصة يوسف عليه السلام.. أنه رغم ما مر به من مشاكل وصعاب واجهت حياته منذ صغره.. إلا أنه صبر وشكر ، وكان ملجأه دائمًا اللَّه سبحانه وتعالى.. الذي وقف بجانبه وأخذ يسرى عنه ويدفع ما حوله من شرور ومصاعب.

وفى المقابل أخذ يوسف عليه السلام يوطن نفسه على التحمل بلا شكوى ، كما عهد إلى نفسه أيضًا أن يقابل الإساءة بالحسنى وتلك جميعًا من شيم وصفات الأنبياء ، فما بالنا نحن البشر من الذين يجب عليهم التأسى بسير هؤلاء العباد المصطفين من أجل أن نتبوأ مكانة قريبة منهم وقد نصل لمكانة مساوية لهم إذا أخلصنا العمل للَّه سبحانه وتعالى، هذه المكانة التى لابد وأن يسبقها إيمان عميق باللَّه وبرسله وبكتابه العزيز والسعى لإقامة شعائر اللَّه لوجه اللَّه فقط.